

السنة المفسرة

د. عامر الحرابي

جامعة الحاج لخضر - باتنة

دراسة وبيان هذه المناهج والطرق
أمرًا محتمًا، وأقل ما يترتب على ذلك
من فوائد: الوصول إلى حقيقة قول
المفسرين والتمييز بين الصواب والخطأ
منها، والتمرن والتدرب للظفر بالفهم
الصحيح، وأول من يرجو الظفر بهذه
المغائم هو كاتب هذه الورقات فالرجاء
من كل من قرأ هذه الصفحات أن يدعو
لي بالصدق والإخلاص والاستقامة
والصواب والحمد لله أولاً وآخراً.

ما وصلنا من تفسيره القولي :

لقد بين الله تعالى القرآن الكريم لنبية
ﷺ ، قال تعالى: {ثُمَّ يُنْزِلُ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}.

إنما أنزل القرآن للعمل به، ولا يتم
ذلك إلا بفهمه، ولا يفهم إلا بتفسيره،
وبهذا كان التفسير أشرف العلوم على
الإطلاق، إلا أن هذا التفسير ليس ميسراً
لكل أحد، بل خص الله به بعضنا من
الناس موزعين على العصور بدءاً بعصر
الصحابة فالتابعين فأتباعهم إلى يومنا
هذا، في شكل روايات أو مؤلفات
وبمرور الزمن تشككت لتفسير هؤلاء
ملامح وتميزت، وتأسست مدارس،
بنيت على طرق ومناهج فتعددت
وتنوعت، وكان لكل هذا أثر في تحديد
المعنى المراد، والحكم المستفاد، مما جعل

وما مات النبي ﷺ حتى بين القرآن لصحابته رضي الله عنهم عملا بقوله تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الْفَصِيحَ} **لنبيين للناس ما نزل إليهم**.

لكن القدر الذي وصل إلينا من بيانه قليل، قال السيوطي: «الذي صح من ذلك قليل جدا بل أصل المرفوع منه في غاية القلة» فأين الباقي؟

والجواب من وجوه:

- الأول: أن النبي ﷺ لم يبين ولم يفسر القرآن آية آية، بل بين ما تدعو إليه الحاجة مما لا يفهم إلا بالبيان.

- الثاني: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يفهمون القرآن لأنه نزل بلغتهم، قال ابن خلدون في مقدمته: «إن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه في مقدراته وتراكيبه».

وينبغي التنبيه هنا إلى أن الصحابة رضوان الله عليهم مع كونهم كانوا

يفهمون القرآن إلا أنهم كانوا يفسرون آيات الأحكام ويسألون عنها دون الآيات المتعلقة بصفات الله تعالى وأفعاله، إذ كانوا لا يفسرونها ولا يسألون عن تفسيرها، قال إمام الحرمين: «الذي نرتضيه ديننا وندين لله به عقدا اتباع سلف الأمة، فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها».

وقال ابن الصلاح: «على هذه الطريقة مضى صدر الأمة وسادتها وإياها اختار أئمة الفقهاء وأصحاب الحديث».

والخلاصة أنهم كانوا يفهمون ما يعمل به من آيات الأحكام، وما يؤمن به من آيات أصول العقائد، ولا يتعرضون لغير ذلك إلا نادرا، وبهذا لم يصلنا من تفسيره ﷺ إلا القليل.

القرآن ينقسم من حيث وضوح معناه وخفاؤه إلى قسمين:

محكم ومتشابه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «التفسير أربعة أوجه:

- الثالث: إن قسطا كبيرا من القرآن

بينته السنة القولية والعملية، وسنورد أمثلة على هذا فيما بعد.

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «جميع ما تقوله الأمة (أي علماء الأمة) شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن».

وقال أيضا: «جميع ما حكم به النبي ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْقُرْآنِ} بَيِّنَاتٍ لِّلنَّاسِ إِنَّمَا أَرَاكَ أَهْلًا».

وقال بعض السلف: «ما سمعت حديثا إلا التمسست له آية من كتاب الله».

وقال سعيد بن جبير: «ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديقه من كتاب الله».

وقال ابن برّجان: «ما قال النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن أو في أصله،

وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى، وفي رواية حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته، ومتشابه لا يعلمه إلا الله».

قال الزركشي: «هذا تقسيم صحيح، فأما الذي تعرفه العرب فهو الذي يرجع فيه إلى لسانهم، وذلك اللغة والإعراب، وأما ما لا يعذر أحد بجهالته فهو ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام، ودلائل التوحيد، وأما ما لا يعلمه إلا الله فهو ما يجري مجرى الغيوب كقيام الساعة وتفسير الروح وكل متشابه في القرآن، وأما ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم فهو الذي يغلب عليه إطلاق التأويل وذلك استنباط الأحكام وبيان المجمال وتخصيص العموم وكل لفظ احتمل معنيين فصاعدا، وهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه».

البيان القولي:

- 1 - «إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضالين هم النصارى».
- 2 - «الصلاة الوسطى صلاة العصر».

3 - {وَأَعِظُوا بِهٖمْ مَا أَنَاظُرُكُمْ مِنْ قُوَّةٍ}: «ألا إن القوة الرمي».

البيان العملي: وهو أكثر أنواع البيان.

- 1 - فطوافه ﷺ للبيت بالكيفية التي نعلمها بيان لقوله تعالى: {وَأَلْبِسُوا قُلُوبَهُمْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}.

2 - وصلاته ﷺ بعد الطواف ركعتين عند المقام هو بيان لقوله تعالى: {وَأَنذَرْتَهُمْ مِنْ مَّقَامٍ يُأْتِيهِمْ فِيهِمُ الْمَصَلَةُ}.

3 - وصعوده ﷺ على الصفا وقراءته للآية ثم أدأؤه لسبعة أشواط هو بيان لقوله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ}.

البيان التقريري: وأمثله نادرة لأنه لا أحد يجسر على التحدث أمام رسول الله ﷺ.

قرب أو بعد، فهمه من فهم وعمه عنه من عمه، وكذا كل ما حكم أو قضى به».

السنة التفسيرية قولاً وعملاً
وتقريراً: تنقسم السنة التفسيرية إلى قولية وعملية وتقريرية.

البيان القولي: وهو الذي سبق أن قررنا بأنه قليل وبينا أسباب قلته.

البيان العملي: ومعظم ما بين من القرآن إنما هو من هذا القسم، ومجموع أقواله وأفعاله وإقراراته راجعة إلى القرآن.

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «ألا تفرعون القرآن؟ قالوا: بلى، قالت: كان خلقه القرآن»، فاقترحت في خلقه على ذلك، فدل على أن قوله وفعله وإقراره راجع إلى القرآن لأن الخلق محصور في هذه الأشياء.

البيان التقريري وهو نادر الوجود.
أمثلة من بيانه وتفسيره للقرآن:

أنه ضحك تصديقا له، بدليل قراءة الآية التي تدل على صدق ما قال الحبر».

المثال الثاني: استدلال عمرو بن العاص على جواز التيمم للجنابة لخوف هلاك يبرد أو غيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْلَبُوهَا أَنْفُسَكُمْ﴾، وإسناده قوي.

نظرات فيما روي عن رسول الله ﷺ من تفسير:

- النظر الأول: من حيث الباعث على تفسيره ﷺ أو المناسبة: كان الباعث له ﷺ على التفسير يختلف:

1 - فأحيانا يُسأل فيجيب: كما في صحيح مسلم أن رجلين اختلفا في المسجد الذي أُسس على التقوى فقال أحدهما هو مسجد رسول الله ﷺ وقال الآخر هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال: ((هو مسجد)).

2 - وأحيانا يقول ذلك تصحيحا لفهم الصحابة كما في قوله تعالى:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْصِبُوا يَدَيَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

المثال الأول: أخرج البخاري بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَبَرُوا إِلَهًا خِزِّ قَبْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَكَ وَنِعْمَ أَنْتَ عَلِيمٌ بِشْرُكَوْنِ﴾.

فقول الراوي «تصديقا لقول الحبر» هو إقرار منه ﷺ لقول الحبر وأنه موافق لمعنى الآية.

قال الإمام النووي: «ظاهر السياق

{الْمُؤْمِنُونَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ}، وكما في قوله تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي السَّابِقُ السَّابِقُ}، وقوله تعالى: {وَأَن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا}، وقوله: {لَنَلْقَاهُنَّ بِنَارٍ لَّظِيمَةٍ أَوْ مَقْتُلٍ مُّتَمِّتٍ أَوْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}.

3 - وأحياناً يسأل كما في قوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ نَّذَرْتُمْ أَنْ تَخْبَاهَا} : «أتدرون ما أخبارها؟ أن تشهد على كل عبد أو أمة بما يعمل على ظهرها»؛ وقوله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَرْجِيءُ الْمَوْتِ لَهَا} : «يا أبا ذر، أتدري أين تغرب الشمس؟ فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله: {وَالشَّمْسُ تَرْجِيءُ الْمَوْتِ...}».

4 - وأحياناً يبادرهم به في خطبته كقوله: {وَأَعْمُوا لَهُمْ مَا أَسْطَغَرْتُمْ مِنْ قَوْلِهِ} أو غيرها وهو أكثر هذه الأقسام.

- النظر الثاني: من حيث موضوعات

الآيات التي فسرهما النبي ﷺ . وهي مرتبة من الأكثر إلى الأقل:

1 - بيان المبهم والمجمل والخاص

الوارد بلفظ العام ونحو ذلك.

2 - أحوال ما بعد الموت والقيامة.

3 - أحوال عباد الله الصالحين.

4 - أخبار بني إسرائيل.

5 - أفعاله سبحانه وتعالى وقضاؤه.

6 - استدلالاته ﷺ واستنباطاته.

7 - الآيات الكونية.

- النظر الثالث: ما يستفاد من هذا

الاستقراء:

1 - لم يتعرض ﷺ لآيات الأحكام إلا نادراً أي بالقول، وهذا يدل على أن آيات الأحكام كانت واضحة المعنى من جهة وتكفل قسط كبير من السنة العملية ببيانه من جهة ثانية، وهذا ما عناه ابن عباس فيما تقدم من تقسيمه للتفسير إلى وجوه، فقال حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته.

2 - لم يفسر ﷺ آيات الصفات ولم يسأل عنها.

ملاحظة: الموضوع موثق وله مراجع.